الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام زعيم الهيأة العلمية وعميد النهضة الفكرية في عصره

الأستاذ الدكتور
خليل عبدالسادة إبراهيم
الجامعة الإسلامية ـ النجف الأشرف ـ كلية العلوم الإسلامية ـ العراق

Imam Musa bin Jaafar al-Kadhim (peace be upon him), the leader of the scientific body and the dean of the intellectual renaissance of his time

Professor Dr.
Khalil Abdul Sada Ibrahim
The Islamic University of Najaf, College of Islamic Sciences, Iraq

الملخص:-

تضافرت عوامل وأسباب في رسم ملامح شخصية الإمام موسى الكاظم عليه السلام تمثّلت في أسرته وبيئته، إذ ورث عن آبائه مكارم الأخلاق، فضلا عن علمهم وقيمهم الإنسانية ومثلهم العليا.

تتلمذ، في المرحلة الأولى، علي أيدي أبيه الإمام جعفر الصادق عليه السلام في مدرسته العلمية الكبرى التي أنشأها في الكوفة، والتي خرّجت الآلاف من العلماء والفلاسفة والفقهاء والمحدّثين، فكان من أبرز العلماء النابهين فيها، وقد شارك أباه عليه السلام في إلقاء محاضراته العلمية، وسانده في تعزيزها في الميادين الثقافية .

وفي المرحلة الثانية، مرحلة القيادة العلمية، تصدّى عليه السلام، فيها، لمنصب رئاسة المدرسة العلمية، وكانت هذه المرحلة مرحلة علمية حسّاسة جدا في تاريخ المسلمين، إذ سيطرت الفلسفة اليونانية على الفكر العام، وكثرت الاتجاهات الفكرية وتنوّعت، وامتدّ ذلك الى صلب العقيدة والدين، فمن حركات تدعو الى الالحاد، ومن حركات فلسفية تشكك في بعض عقائد الدين.

وقد بادر الإمام عليه السلام، بما عرف عنه من علم ودراية، الى الردّ عليها وتزييف ما ذهب إليه دعاتها بالأدلة العلمية الدامغة والقدرة الفائقة خضع له عليه السلام أصحاب هذه الدعوات.

الكلمات المفتاحية: الإمام جعفر الصادق عليه السلام، الإمام موسى الكاظم عليه السلام، القيادة العلمية، الرسالة، الوصية، التيارات الفكرية.

APSTRACT:-

Factors and causes converged in drawing the features of Imam Musa al-Kadhim (peace be upon him) represented in his family and environment, as he inherited from his fathers the generosity of morals, as well as their knowledge, their human values and their ideals.

In the first stage, he was a student at the hands of his father, Imam Jaafar al-Sadiq (peace be upon him) in his major scientific school that he established in Kufa, which produced thousands of scholars, philosophers, jurists and modernists, and was one of the most prominent scholars in it, and his father (peace be upon him) participated in giving His scientific lectures, and supported him in strengthening them in the cultural fields.

In the second stage, the stage of scientific leadership, (peace be upon him), in it, confronted the position of presidency of the scientific school, and this stage was a very sensitive scientific stage in the history of Muslims, as Greek philosophy dominated public thought, and intellectual trends multiplied and diversified, and this extended to the core of belief Religion, from movements calling for atheism, and from philosophical movements that question some of the beliefs of religion.

The Imam (peace be upon him), with what was known about him in terms of knowledge and know-how, took the initiative to respond to her and falsify what her preachers said with irrefutable scientific evidence and superior ability to whom (peace be upon him) the owners of these calls were subjected to.

Key words: Imam Jaafar al-Sadiq (peace be upon him), Imam Musa al-Kazim (peace be upon him), scientific leadership, the message, the will, intellectual currents.

المقدمة:

تضافرت عوامل وأسباب في تحديد ملامح شخصية الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، إذ إنّ الانسان، بميوله واتجاهاته وملامحه الخارجية والداخلية، وليد مؤثرات أسهم كلّ منها في تحديد تلك الملامح، ويبدو أنّ بعضها لا دخل للإنسان دخل في اختيار أيّ من معطياتها، وأعني بذلك عامل الوراثة، الذي يتدخّل بشك قويّ في إضفاء تلك الصفات على شخصية الانسان، ذلك أنّ علماء الوراثة والنفس يذهبون ((الى أنّ الوراثة من الأسباب الفعّلة في التكوين النفسي والنمو الفكري، وأنّ الذكاء وسائر ألوان النضوج العقلي للشخص يستند الى الوراثة استنادا مباشرا، فالفرع لا يقتصر في مشابهته لأصله على مظاهره الشكلية، وإنّما يشابهه في خواصّه الذاتية وفي أدقّ أوصافها))[١].

وقد اكتشف الاسلام هذه الظاهرة قبل أن يكتشفها علماء الوراثة، فقد أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[٢].

وأثر عن النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله قوله: ((تخيّروا لنطفكم فإنّ العرق دسّاس))[٣]. فهذا الحديث يتحدّث عن قانون الوراثة بصراحة، ويعبّر عن العامل فيها بالعرق. فالنبيّ صلى الله عليه وآله يوصي أصحابه بألّا يغفلوا عن قانون الوراثة، بل يفحصوا عن التربة الصالحة التي يريدون أن يبذروا فيها، لكي لا يرث الأولاد الصفات الذميمة))[٤].

وتشاطر البيئة: الخاصة والعامة عامل الوراثة في تشكيل ملامح شخصية الانسان، وهما من أهم العوامل التي تكوّن، في نفس الانسان، الغرائز والعادات، فإذا كانت سليمة حسنت آثارهما، وإلّا انحرف النشء عن جادة الصواب، إذ إنّ استقرار البيئة الاجتماعية وعدم اضطراب الأسرة لها دخل كبير في استقامة سلوك النشء ووداعته وسلامته من الانحراف.

فالإمام موسى الكاظم عليه السلام، على ضوء قاعدة الوراثة، قد ورث من آبائه عليهم السلام جميع صفاتهم التي امتازوا بها على سائر الناس من الكرم والسخاء والحلم والرحمة وحبّ الخير والبرّ بالناس والتفاني في سبيل الصالح العام ونحو ذلك.

أمّا البيئة الخاصة (الأسرة) فقد كان الإمام الكاظم عليه السلام فقد كان عليه السلام وحيدا في خصائصه ومقوماته، لأنّه نشأ في أسرة هي معدن التقوى وخزانة العلم والحكمة والعلم ومختلف الملائكة ومهبط الوحيّ والتنزيل، وإليها تنتهي كلّ مكرمة وفضيلة في الإسلام.

لقد نشأ الإمام عليه السلام في أحضان أبيه الإمام جعفر الصادق عليه السلام، الذي عرفه التاريخ الإنساني بإيمانه وتقواه وسائر نزعاته التي ورثها عن آبائه الأئمة الطاهرين عليهم السلام ، فقد سكب في نفس ولده الكاظم عليه السلام جميع مثله ونزعاته، حتى صار بحكم نشأته وتربيته من أفذاذ الفكر الاسلامي، ومن أبرز أئمّة المسلمين. فالبيت الذي عاش فيه الإمام عليه السلام كان معهدا من معاهد الفضيلة، ومدرسة من مدارس الإيمان والتقوى.

فالبيئة التي عاش فيها الإمام عليه السلام بيئة دينية تسودها القيم الإنسانية والمثل العليا، وبذلك قد توافرت للإمام عليه السلام جميع عناصر التربية الرفيعة(٥).

وإذا ما جمعنا هذه الأسباب الى علمه عليه السلام لوجدنا أننا أمام رجل ورث علم هذه الأسرة وعملها، إذ إنّ الامام عليه السلام قد أحاط في سنّ مبكّرة بأنواع العلوم والمعارف(٦)، وسعى الى نشرها عملا بمنهج الجامعة العلمية التي أسسها أهل البيت عليهم السلام، الذين قاموا بدور إيجابي في بعث الحركة العلمية وتطوّرها، على الرغم من المضايقات التي كانوا يلاقونها من حكام عصورهم. هذه الجامعة كان من أهدافها بسط العلم بجميع أنواعه، وتحرير أفكار المسلمين من رواسب الجهل والجمود، في هذا الجو المشحون بالمناظرات والنقاشات تربى الإمام الكاظم عليه السلام(٧).

وقد قطع الامام الكاظم عليه السلام شوطا من حياته في جامعة أبيه الكبرى، التي خرّجت الآلاف من العلماء والفلاسفة والفقهاء والمحدّثين، حتى قال الحسن الوشاء عند مروره بمسجد الكوفة: أدركت في هذا المسجد تسعمائة شيخ كلّهم يقولك حدّثني جعفر بن محمد، وكان الإمام عليه السلام من أبرز العلماء النابهين فيها، فقد وصفه أبوه الامام الصادق عليه السلام بوفرة علمه مخاطبا واحدا من أصحابه: ((إنّ ابني هذا لو سألته عما بين دفتي المصحف لأجابك فيه بعلم))، وقال فيه: ((وعنده علم الحكمة والفهم والسخاء والمعرفة بما يحتاج إليه الناس فيما اختلفوا فيه من أمر دينهم))(٩)،كما شارك أباه في إلقاء المحاضرات العلمية، وسانده في تعزيزها وتقديمها في الميادين الثقافية، ليتولّى، بعد وفاة أبيه الامام الصادق عليه السلام سنة (١٤٨هـ)

شؤون هذه المدرسة الكبرى، وقام بنشر العلوم وبثّ روح الفضيلة، فقد احتفّ به العلماء والرواة لا يفارقونه، ولا يفترقون عنه، يسجّلون أحاديثه وأبحاثه وفتاواه[٨].

ويمكن القول: إنّ حياة الامام الكاظم عليه السلام العلمية تقسم على مرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة التتلمذ، فقد كان الامام عليه السلام، في هذه المرحلة في زمن أبيه عليه السلام، يرتاد مدرسة أبيه العلمية الكبرى، التي أنشأها في الكوفة، والتي خرّجت الآلاف من العلماء والفلاسفة والفقهاء والمحدّثين، ولم يقتصر نشاط هذه المدرسة على العلوم الاسلامية كعلوم القرآن والفقه والحديث والأخلاق ونحوها، وإن كانت هذه العلوم من أساسياتها، بل تناول التدريس فيها مختلف الأبحاث، فكانت مدرسة علمية موسوعية شاملة، ضمّت علوم التفسير والفقه والحديث وعلم الكلام والجدل والأنساب واللغة والشعر والأدب والكتابة والتاريخ والفلسفة والكيمياء والفلك وأصول الآداب والقيم الاجتماعية ومكارم الأخلاق والاصلح الشامل في كلّ ميادين الحياة [١٠]، وهي، مضافا الى ذلك، مدرسة تميّزت باستقلاليتها عن السلطة وعم خضوعها لسيادة الدولة، كما كان لها فضل السبق على كلّ المدارس من المذاهب الأخرى في وضع أصول الاجتهاد والاستنباط في الفقه وتحرير مباحثه[١١].

قال محمد صادق نشأت: ((كان بيت جعفر الصادق كالجامعة يزدان على الدوام بالعلماء الكبار في الحديث والتفسير والحكمة والكلام، فكان يحضر مجلس دروسه، في أغلب الأوقات، ألفان، وفي بعض الأحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين، ألّف تلاميذه من جميع الأحاديث والدروس التي كانوا يتلقونها في مجلسه مجموعة من الكتب تعدّ بمثابة دائرة علمية للمذهب الشيعي أو الجعفري))[١٢].

وقد قطع الامام الكاظم عليه السلام شوطا من حياته في هذه الجامعة الكبرى، وكان من أبرز العلماء النابهين فيها، وشارك أباه عليه السلام في إلقاء محاضراته العلمية، وسانده في تعزيزها وتقديمها في الميادين الثقافية [١٣].

في هذا الجو العلمي المشحون بالمناظرات والمناقشات تربّى الامام الكاظم عليه السلام، فكان، كما وصفه من عرفه، إماما مقدّما في العلم والدين، وأنّ من يرد العلم الصحيح يجده عنده، وهو وارث أبيه علما ومعرفة وكمالا وفضلا [١٤].

المرحلة الثانية: مرحلة القيادة العلمية ن تصدى الامام عليه السلام، في هذه المرحلة، لمنصب رئاسة المدرسة العلمية، وكانت هذه المرحلة مرحلة ((علمية حسّاسة جدا في تاريخ المسلمين، حيث سيطرت فيها الفلسفة اليونانية على الفكر العام، وكثرت فيها الاتجاهات الفكرية وتنوّعت، وامتدّ ذلك الى صلب العقيدة والدين، فمن حركات تدعو الى الالحاد، ومن حركات فلسفية تشكّك في بعض العقائد الدينية.

فكان على الامام عليه السلام، في هذه المرحلة، أن يتحمّل مسؤوليته من الناحية العلمية، فواصل منهج أبيه الامام الصادق عليه السلام في رئاسة المدرسة التي أسّسها هو وأبوه الباقر عليه السلام[١٥]، إذ إنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام حملوا مشعل النهضة العلمية في العالم الاسلامي، فأسّسوا في حواضره معالم الحياة الفكرية، ودعوا المسلمين دعوات جادة تحمل طابع النصح والتوجيه لهم في أن يبنوا حياتهم على أساس من الوعي العلمي[١٦].

فالإمام الكاظم عليه السلام، على الرغم من الظرف السياسي الحرج، وتضييق الحكام عليهن لم يتك مسؤولياته العلمية، ولم يتخلّ عن تصحيح المسار الاسلامي بكلّ ما حوى من علوم ومعارف واتجاهات، فتصدى هو وتلامذته لتيارات الالحاد والزندقة، لتثبيت أركان التوحيد، وتنقية مدارات العقيدة، وايجاد رؤية عقائدية أصيلة تشعّ بروح التوحيد، وتثبت في أعماق النفس والعقل، كما أغنى مدرسة الفقه بحديثه ورواياته وتفسيره، وتتميما لمراحل الرسالة التي يحملها الامام عليه السلام، واستمرارا لرسالة آبائه عليهم السلام، فقد تصدى الى كلّ الظواهر الضارة بالدين والعقيدة، التي يريد أصحابها حرف الأمة عن مسارها الصحيح كما رسمه الاسلام، وحافظ عليه أئمة أهل البيت عليهم السلام، أو تلك التي أراد بها خصومه ومناوئوه، بتوجيه من السلطة المعادية، كما حدث مع الفضل بن الربيع[٢١]، أن يغضوا منه، إذ كانت له معهم مناظرات واحتجاجات بليغة، كما كانت له مناظرات مع بعض علماء اليهود والنصارى[٢٢]، وكانت تنتهي جميعها بهزيمتهم لما قدّمه من الأدلة الوافرة على صحة مدعاه، وبطلان ما ذهبوا إليه، معترفين بالعجز والفشل، وبغزارة علمه وتفوّقه.

فكان عليه السلام، بهذه المنهجية، يثبّت أركان الاسلام، ويعمّق أصول التفسير الاسلامي، وينقّي مناهج الفقه والتشريع، فحفظ، بذلك، مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وأغنى عطاءها، وأنمى ثمارها [١٧].

فأصبح، منذ اليوم الأول بعد وفاة أبيه عليه السلام، عميدا وزعيما للهيئة العلمية والنهضة الفكرية في عصره، وانتقل أغلب تلامذة أبيه إليه، واستمروا معه ما يزيد على الثلاثين عاما ينالون من كنوزه، ويروون عنه، فقد ذكرت كتب الرجال والتراجم الرواة والمعنيين بالحديث أنّ أكثر من ثلاثمائة راو رووا عنه جميع أنواع العلوم على اختلافها وتباعد أطرافها من الحكمة والتفسير والفقه بجميع أنواعه، وكان عليه السلام يمسك بأيدي تلامذته بجدارة ليوصلهم، في أقصر طريق، الى الدرجات الرفيعة في الإيمان والعلم، فكانوا لا يضارعهم أحد في علم الفقه والحديث والكلام والمناظرات، ويعتبرون أنموذج العصر في الأخلاق الحسنة والعمل الصالح والخدمة للمسلمين، يلاحظ المتتبّع لتلامذة الامام عليه السلام كثرة اعدادهم، وتعدّد تخصّصاتهم العلمية، وميولهم المعرفية، وغزارة منتوجاتهم العلمية والفكرية والدينية. وقد لوحظ على أساتذة علم الكلام أنّهم يعجزون عن مواصلة النقاش معهم، إذ إنّهم سرعان ما يهزمون أمامهم في المناظرات، فيعترفون بعجزهم، ما جعل شخصياتهم الفذّة تهيمن على، الساحة الاجتماعية، ما أثار خوف السلطة منهم، لما رأوا حبّ الناس لهم والتفافهم حولهم.

من أمثال (ابن أبي عمير (ت ٢١٧هـ)، الذي أدرك مجالس ثلاثة من الأئمة: الامام الكاظم والامام الرضا والامام الجواد عليهم السلام، ويعدّ من جملة العلماء المشهورين، وكبار أصحاب الأئمة عليهم السلام، و (وصفوان بن مهران)، الذي كان م خيرة الرجال وموثّقا، والعلماء الكبار يولون رواياته أهمية قصوى، وهو المعروف بـ (صفوان الجمّال). و (صفوان بن يحيى) وهو من طبار أصحاب الامام عليه السلام، قال عنه الشيخ الطوسي: ((إنّ صفوان، عند أهل الحديث يعدّ من أوثق الناس في العلم وأكثرهم نزاهة، وقد أدرك الامام الثامن عليه السلام، أيضا، وكانت له عنده درجة ومنزلة رفيعة. و (علي بن يقطين (ت ١٨٢هـ)، الذي طلب منه الامام عليه السلام البقاء في وزارة هارون، ولم يجز له الاستقالة منها، لخدمة الموالين، خلّف كتبا عديدة، ذكر اسماء بعض منها الشيخ المفيد رحمه الله والشيخ الصدوق رحمه الله. و (مؤمن الطاق)، وهو محمد بن علي النعمان، يكنى بأبي جعفر، ويلقّب بـ (مؤمن الطاق)،وهو من أصحاب الامام الصادق والامام الكاظم عليهما السلام، وكان كلما دخل في نقاش مع المخالفين هزمهم وتغلّب عليهم، قال عنه الامام الصادق عليه السلام: إنّه كان يناقش الناس وينقضّ على فريسته كالصقر. و (هشام بن الحكم) الذي لا يشكّ في نبوغه في البحث والمناظرة وعلم الكلام، وقد بزّ الآخرين في هذا الفن. قال عنه ابن النديم: ((كان هشام من متكلّمي الشيعة، ومن

الذين أشبعوا موضوع الامامة بحثا، فقد كان ماهرا في علم الكلام وحاضر الجواب، خلّف وراءه كتبا كثيرة، وكانت له مواقف رائعة ومناقشات ممتازة مع علماء الأديان الأخرى.

إنّ مدرسة الامام الكاظم عليه السلام، التي هي امتداد لمدرسة أبيه الامام الصادق عليه السلام، حقّقت الكثير من الأهداف في التربية والبناء الفكري المتميّز رغم الصعوبات التي كانت تقف عائقا أمام تقدّم المدرسة العلمية، إلّا أنّ اصرار الامام عليه السلام، وإرادته القوية، واستثمار كلّ فرصة متاحة في تربية الكوادر العلمية ونشر العلوم والمعارف الاسلامية والعناية بالمتميّزين كان له بالغ الأثر في صناعة القادة وكبار العلماء والفقهاء والرواة، وهم الذين نشروا فكر آل البيت عليهم السلام ومنهجهم، وأوصلوه الى مختلف الأقاليم والبلدان الاسلامية [١٨].

ولم يكن اهتمام الامام عليه السلام في مدرسته مقصورا على الدرس العلمي، بل أولى الامام عليه السلام مكارم الأخلاق عناية كبيرة، فزرع في نفوس تلامذته حبّ مكارم الأخلاق، إذ إنّ الاسلام جاء بمكارم الأخلاق واعتبرها قاعدة أساسية في رسالته. قال الرسول الكريم صلى الله عليه وآله: ((إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))، فكان الرسول صلى الله عليه وآله المثل الأعلى والقدوة الحسنة.

وقد سار الأئمة عليهم السلام من بعده على هديه في تأسيس مكارم الأخلاق ومكارم الأعمال، وذلك بسلوكهم وما أثر عنهم من الوصايا والتوجيهات والارشادات لأصحابهم، فكان الامام الكاظم عليه السلام يوصي أصحابه بالتحلي بالصفات الكريمة، ليكونوا بسلوكهم قدوة صالحة للمجتمع، حتى يستطيعوا نشر مفاهيم الخير والصلاح بين الناس[١٩].

وللإمام عليه السلام، في ذلك، كلمات حكمية، تطرق فيها لبعض الشؤون الأخلاقية والاجتماعية. منها:

قوله: ((لا تذهب الحشمة بينك وبين أخيك، وابق منها، فإنّ ذهابها ذهاب الحياء)). وقوله ((عونك للضعيف من أفضل الصدقة)). وقوله: ((المؤمن أعزّ من الجبل، الجبل يستلّ منه بالمعاول، والمؤمن لا يستقلّ من دينه شيء))[٢٠].

وكان حصيلة كلّ هذه الجهود تراث فكريّ غنيّ شهد على عظمته، وخلّد ذكره، زوّد به أصحابه وطلبة مدرسته، وهو تراث يعدّ من أروع ما خلّفه أئمة المسلمين من الثروات الفكرية، ومن أنفس ما أبقاه علماء المسلمين من التراث العلمي، على الرغم من أنّ الامام عليه السلام تحرّك

فكريا في ظلّ ظروف اجتماعية خاصة تحدّ من امكانية التحرك الفكري الحرّ، إلّا أنّ النصوص المأثورة عنه تحتل مساحة كبيرة من المبادئ التي رسمها أئمة أهل البيت عليهم السلام سواء في ذلك في صعيد العلوم كعلم الحكمة والكلام وعلم الفقه والتفسير والحديث ونحوها أم على صعيد حكمه وآرائه القيّمة التي تناولت آداب السلوك والأخلاق وقواعد الاجتماع ومختلف القضايا الفكرية والاجتماعية التي طرحها عليه السلام من خلال التوصيات، أو من خلال اللقاءات المختلفة التي أتيح له أن يتوفّر عليها، وهي حافلة بأروع الفصاحة والبلاغة البالغتين حدّ الإعجاز[٢٣].

من ذلك رسالته عليه السلام في العقل[٢٤]، التي يخاطب فيها هشام بن الحكم[٢٥]، وهي رسالة تشتمل، كما يقول صاحب موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام: ((على خطابات ذكر في كلّ منها بابا عظيما من العلم، بعضها من العلوم الإلهية، وبعضها في علم السماء والعالم، وبعضها في علم الفلكيات، وبعضها في علم الأكوان والمواليد، وبعضها في علم النفس، وبعضها في تهذيب الأخلاق وتطهير النفوس من الرذائل، وبعضها في السياسات المدنية، وبعضها في المواعظ والنصائح، وبعضها في علم الزهد وذم الدنيا، وبعضها في علم المعاد والرجوع الى الله، وبعضها في مذمة الكفرة والجهلة وسوء عاقبتهم وانقلاب نشأتهم الى نشأة البهائم، وإنّهم صمّ بكم عمي، لأنّهم لا يعقلون، الى غير ذلك من العلوم والمعارف))[٢٦].

قال عليه السلام: ((يا هشام، إنّ الله عزّ وجلّ أكمل للاس الحجج بالعقول، وأفضى إليهم بالبيان، ودلّهم على ربوبيته بالأدلاء، فقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[٢٧]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ الى قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢٨]. يا هشام، جعل الله عزّ وجلّ ذلك دليلا على معرفته بأنّ لهم مدبّرا، فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢٩]، وقال: ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٣٠]، وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٣١].

وقد ذكر الشيخ باقر القرشي، بعد أن أورد نصّ رسالة الامام عليه السلام، شرحا لها اقتبس بعضه، كما يقول، مما ذكره فيلسوف الاسلام الشيخ ملا صدرا في تفسيره لهذا الحديث[٣٢].

ومن تراث الامام عليه السلام القيّم رسالته في التوحيد، ((وهي، على ايجازها، مدعمة بالحجج الكلامية على وجود الله تعالى، وبيان صفاته الإيجابية والسلبية، وقد كانت هذه الرسالة، فيما يذكر المؤرخون، جوابا عن رسالة وجهها إليه الفتح بن عبدالله يسأله عن ذلك))[٣٣]. أذكر فقرة منها للاطلاع على بعض مضامينها، ومعرفة أسلوبه عليه السلام:

قال عليه السلام: ((الحمد لله الملهم عباده حمده، وفاطرهم على معرفة ربوبيته ن الدال على وجوده بخلقه، وبحدوث خلقه على أزله، وباشتباههم على أن لا شبه له. المستشهد بآياته على قدرته، الممتنعة من الصفات ذاته، ومن الأبصار رؤيته، ومن الأوهام الاحاطة به))[٣٤]. وقد بيّن الشيخ القرشي مضامين هذه الرسالة.

والذي يقرأ هذا التراث الفكري يلمس بوضوح أنّه صيغ بلغة صافية، بألفاظها الموحية، وتراكيبها الدالة على المقاصد والأفكار، وصورها البديعة، وإيقاعها، أو ما يسمى بـ (التركيب الإيقاعي)[٣٥]، الذي تنمّ عنه العبارة المقفّاة والتوازن والتجانس ما دفع الدارسين الى دراسة هذا التراث دراسة أدبية بلاغية كشفوا بها عناصر الإبداع الفني في نصوصها، ووحدة الموضوع فيها، ما يجعلها، بصورها الكلية، تحقق الهدف الفكري[٣٦]. وهذا ما نلحظه على وجه الخصوص في رسالته في العقل، إذ قدّم الامام عليه السلام في هذه الرسالة (الخطاب) تصنيفا ضخما شاملا لكلّ سمات الشخصية: عباديا وعقليا، ونفسيا، واجتماعيا، يعدّ في مقدمة التصنيفات الاسلامية التي توفّر عليها المعصومون عليهم السلام.

والملاحظ أنّ الامام عليه السلام لم يعرض هذا التصنيف إلّا في سياق فنيّ، هو الكلمة أو التوصية، التي تضمّنت أسلوبا أدبيا، إذ أخضع الامام عليه السلام هذه الرسالة الى وحدة الموضوع من جانب، ثم توشيحها بلغة الفنّ من جانب آخر[٣٧].

يلحظ الدارس وفرة العناصر الفنية في هذه الرسالة: إيقاعيا وصوريا ولفظيا وبنائيا. وهذا الإيقاع يبو واضحا في العبارات المقفاة والتوازن بين العبارات والتجانس بينها. أما صوريا فإنّ هذا الأمر نلمسه في الصور التي بنيت على أسلوب التشبيه والاستعارة والتمثيل ونحوها، ما يمكن أن تعدّ منطقة راحة للذهن وهو يتتبّع مضامين هذه الرسالة [٣٨]، ليكون الامام عليه السلام، في التراث الذي خلّفه، قد جمع، في كلامه كآبائه، بين سمو المضمون وجمال اللغة ورقيّها، ما بوفّر لهذا التراث الخلود، وله الشاهد على أنّه زعيم الهيأة العلمية وعميد النهضة الفكرية في عصره.

هوامش البحث

(١) موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام: ٥١/٢٨

(٢) نوح/٢٦- ٢٨

(٣) المستطرف في كلّ فنّ مستظرف: ٥٥٩/٢، ورد الحديث فيه: ((انظر في أيّ شيء تضع ولدك، فإنّ العرق دسّاس)).

(٤) الطفل بين الوراثة والتربية: ٦١

(٥) ظ: موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام: ٥١/٢٨ - ٥٥

(٦) ظ: الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة عليهم السلام: ٣٣، سيرة الأئمة الأثني عشر عليهم السلام: ٧٣/٣

(٧) ظ: موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام: ١٣٢/٢٨

(٨) ظ: سيرة الأئمة الأثني عشر عليهم السلام: ٧٧/٣

(٩) موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام: ١٣٢/٢٨- ١٣٣

(١٠) موقع الكوثر

(١١) موقع الكوثر

(١٢) جعفر الصادق والمذاهب الأربعة:٦٢/١ نقلا عن الموسوعة الحرة

(١٣) موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام: ٩٥/٢٨

(١٤) ظ: موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام: ١٦١/٢٨- ١٧٣

(١٥) أعلام الهداية: ١١٠ نقلا عن الموسوعة الحرة

(١٦) موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام: ٢٤٣/٢٨

(١٧) موقع الشيعة

(١٨) موقع الشيخ عبدالله اليوسف

(١٩) موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام: ٢٤٩/٢٨

(٢٠) ذكر كثيرا منها صاحب (تحف العقول): ٢٩٩- ٣٠٤، وصاحب موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام: ٢٨٧/٢٨- ٢٩٧

(٢١) زهر الآداب: ١٣٢/١ نقلا عن موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام: ٢٦٩/٢٨

(٢٢) بحار الأنوار: ٢٤٤/١٠- ٢٤٥، مناقب آل أبي طالب: ٤٢٧/٣ نقلا عن موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام: ٢٨/ ٢٨٣- ٢٨٤

(٢٣) موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام: ١٨٠:٢٨

(٢٤) تحف العقول: ٢٨١- ٢٩٥

(٢٥) أبو الحكم هشام بن الحكم البغدادي الكندي مولى بني شيبان ممن اتفق الأصحاب على وثاقته وعظم قدره ورفعة منزلته عند الأئمة عليهم السلام.

(٢٦) موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام: ١٨٠/٢٨
(٢٧) البقرة/١٦٣-ة١٦٤
(٢٨) البقرة/١٦٣
(٢٩) النحل/١٢
(٣٠) الزخرف/١- ٣
(٣١) الروم/٢٣
(٣٢) ظ: موسوعة سيرة أهل البيت: ٢٨/ ١٨٠- ٢٢٧
(٣٣) المرجع نفسه: ٢٨م٢٢٨
(٣٤) المرجع نفسه: ٢٢٨/٢٨
(٣٥) الاسلام والأدب: ١٩٩
(٣٦) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي: ٤٧٥- ٤٨٣، أدب الشريعة الاسلامية: ٣١٠- ٣١٩
(٣٧) المرجع نفسه:٤٧٦- ٤٧٧
(٣٨) ظ: المرجع نفسه:٤٧٨

قائمة المصادر والمراجع

إن خير ما نبتدئ به القرآن الكريم

- أدب الشريعة الاسلامية - د. محمود البستاني - مؤسسة السبطين عليهم السلام العالمية - قم المقدسة -ط ٢ - ١٤٣٣هـ
- الاسلام والأدب - د. محمود البستاني - المكتبة الأدبية المختصة ط١ ١٤٣٣هـ
- أعلام الهداية - مجموعة باحثين - معاونية الشؤون الثقافية - المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام
- تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي - د. محمود البستاني - مجمع البحوث الاسلامية - بيروت -لبنان
- تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله - أبو محمد الحسن بن علي الحسين بن شعبة الحرّاني - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - لبنان - ط٧ - ٢٠٠٢م
- جعفر الصادق والمذاهب الأربعة - أسد حيدر

- زهر الآداب - أبو اسحاق ابراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت ٤١٣هـ)
- سيرة الأئمة الأثني عشر - السيد علي عاشور العاملي - منشورات الفجر - بيروت - لبنان - ط١ - ٢٠١٠م
- الطفل بين الوراثة والتربية - محمد تقي فلسفي - تعريب وتعليق فاضل الحسيني الميلاني - مطابع بيروت الحديثة - دار اليقين العراق - النجف الأشرف
- الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة عليهم السلام - الشيخ علي بن محمد الصباغ -دار الأضواء ط٢ - ١٩٨٨م
- المستطرف في كل فن مستظرف - الشيخ محمد بن أحمد الخطيب الابشيهي
- مناقب آل أبي طالب - ابن شهر آشوب - المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف
- موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام - باقر القرشي - تحقيق مهدي باقر القرشي مؤسسة الامام الحسن عليه السلام - العراق - النجف الأشرف ط٤ -٢٠١٦م.